ابن خلدون فى مصر

(٤)

للاستاذ محمد عبد الله عنان

وتحدث الفاتح طويلا الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه الى مصر وماوقع له بها، ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه، وطلب اليه أن يكتب له رسالة فى وصف المغرب، وحدثه المؤرخ بانه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعنى مذ تألق نجمه وبزغ مجده، وشرح له طرفا من آرائه ونظرياته الاجتماعية فى العصبية والملك . ولا ريب أن مفاوضة فى شأن المدينة وقعت أيضا بين المؤرخ والفاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم ، فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على أثر ذلك، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ الى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة. ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حيناً ، ثم انصرف واشتغل أياما بكتابة رسالة فى وصف بلاد المغرب حتى أتمها وبلغت على قوله اثنى عشرة كراسة صغيرة ثم قدمها الى تيمورلنك فأمر بترجمتها الى اللغة المغولية(١)

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت التقليم من بطش الفاتح ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة فى المقاومة فشددوا عليها الحصار حتى سلمت، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعبث والنهب وأضرموا النار فى معظم أحيائها وتكررت المناظر المروعة التى وقعت فى حلب، على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة وحدثه تيمورلنك ضمن ماحدث بامر شخص تقدم اليه مدعياً بالخلافة وانه سليل بنى العباس وجرت مناقشات فقهية طويلة فى شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته فى الخلافة. وقدم ابن خلدون أيضا الى الفاتح هدية هى «مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة» ولما قدمها اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين فى مجلسه

والتمس المؤرخ منه فى هذا المجلس أمانا للقضاة والرؤساء والعمال فاجابه الى طلبه وأصدر الامان

يصف لنا ابن خلدون هذه الحادثات والمقابلات التى وقعت له مع الفاتح التترى ، وقد كان فيها يؤدى دور المفاوض والسياسى القديم . ولكن مؤرخا مصريا هو ابن اياس يقدم الينا فى ذلك رواية أخرى، فيقول لنا ان الذى قام بمفاوضة تيمورلنك فى تسليم دمشق هو القاضى تقى الدين من مفلح الحنبلى، وانه هو الذى ادلى من السور واختاره الزعماء لتلك المهمة، لانه كان يعرف التركية وانه هو الذى سعى فى تسليم المدينة واقتاد وفد القضاة الى الفاتح واستصدر منه الامان وتولى تنفيذ جميع رغائبه فى جمع المال والاسلاب(١) ولكن ابن خلدون صريح فى روايته فى انه هو المفاوض والوسيط فى عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وانه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ولا شك فى روايته . وهى من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقى مؤرخ تيمورلنك الذى كتب تاريخه قريبا من هذه الحوادث فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت اسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ويصور لنا فى عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من احاديث ومناقشات . (٢) على ان صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة اخرى ان يكون ابن مفلح قد اشترك فى المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم .

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا اخرى غير ما وفق اليه فى شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة، ولعله كان يرجو الانتظام فى بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب فى ظل رعايته ونعمائه . على انه لم يوفق بلا ريب الى تحقيق مثل هذه الامنية فلم تمض اسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق وذهب الى تيمور يستأذنه فى العود الى مصر فاذن له وطلب اليه فى تلك المقابلة ان يقدم اليه بغلة اذا استطاع فاهداه المؤرخ اياها وبعث اليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله الى مصر . وغادر

---

(١) لم تصل الينا هذه الرسالة التى كتبها ابن خلدون فى وصف بلاد المغرب ولكن المرجح أنها لم تكن سوى صورة مما كتبه فى ذلك فى تاريخه الكبير فى القسم الذى يخصصه لتاريخ البربر يمهد له بوصف عام فى جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر — ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها)

الالهام المصرى . والى ان يصل الكتاب الى ذلك سيظل معظم القراء المصريين مقبلين على آداب غيرهم ، ولن يقف تيار الأدب الأوروبى الا اذا تسنى للمصريين أن يخلقوا فنا جديدا من فنون الكتابة بواسطته تظهر القصة المصرية فى معناها الحقيقى.

ترجمها عن الانجليزية للرسالة محمود الخفيف

---

(١) ابن اياس فى « تاريخ مصر » (بولاق) ج ١ ص ٣٣١ و ٣٣٢

(٢) ابن عربشاه فى كتاب « عجائب المقدور » (مصر) ص ١٢٣ وما بعدها — وراجع كتابى « مصر الاسلامية» ص ١٢١

المؤرخ دمشق فى شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه اليها ودهمه اللصوص اثناء الطريق فسلموه ماله ومتاعه ولكنه وصل سالما الى القاهرة فى اوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطا بنجاته «وحمدت الله على الخلاص» . ويقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق يصف هذه الحوادث وما دار بينه وبين تيمورلنك ويصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه .

—٣—

وما كاد ابن خلدون يستقر فى القاهرة حتى أخذ يسعى للعود الى منصب القضاء. وقد رأينا انه كان يحتفظ دائما بكرسى التدريس فى مدرسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ ، وكان ابن خلدون يشعر وهو فى ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة انه بحاجة الى ذلك النفوذ الذى اعتاد أن يتمتع به فى جميع علائقه السلطانية ، وكانت المعركة التى تضطرم حول ذلك الكرسى ، والتى شهدنا مظاهرها فى تكرار تعيينه وعزله ، تذكى بلا ريب فى نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسى، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع ابدا الى مسند النفوذ والجاه ، ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصرى نزيه ثقة فى اشارة موجزة اذ يقول لنا فى خاتمة ترجمته للمؤرخ « رحمه الله ، ما كان أحبه فى المنصب » (١) . وكان ثمة شىء آخر الى جانب هذا الشغف بالمنصب ، فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة ، يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكانته فى القصر وان يتغلب على كيد خصومه ، ويفقده كلما نجحت سعاية خصومه فى حقه

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية فى المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا فى ركب السلطان الى الشام، فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للدس فى حقه ، وزعم بعضهم انه هلك فى حوادث دمشق (٢) . ويريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظا له أو انه وعد على الأقل برده اليه من أولى الامر ، فيقول لنا انه على أثر هذا الارجاف فى حقه عين مكانه فى قضاء المالكية ، جمال الدين الاقفهسى (جمادى

(١) ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠١
(٢) « التعريف » فى النسخة المخطوطة

الثانية سنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك، وعزل الاقفهسى، وولى ابن خلدون للمرة الثالثة فى أواخر شعبان أو أوائل رمضان (١) فلبث فى منصبه زهاء عام يعمل فى جو يفيض بالاحقاد والخصومة، ولكنه يقول لنا انه لم يخفل كعادته بصانعة الأكابر وانه استمر كما كان « من القيام بالحق والاعراض عن الاغراض » . فاضطرمت من حوله الدسائس القديمة ، واشتدت فى حقه المطاعن والمثالب، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة، وعزل المؤرخ كرة أخرى فى ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤)، وولى مكانه جمال الدين البساطى فى أواخر رجب ، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل . والظاهر ان المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة ، وان ابن خلدون عانى من حملات خصومه مالم يعان من قبل ، حتى انه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير، ووجه اليه كثير من التهم . ويقول لنا ابن حجر والسخاوى فى هذا الموطن : « وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أموراً كثيرة أكثرها لا حقيقة له ، وحصل له من الاهانة مالا مزيد عليه»(٢). وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه ، واستحالت الى نضال عنيف سريع الأثر ، وبقى مظهرها التداول على المنصب، ولكنه انحصر حينا بين ابن خلدون والبساطى ، مما يدل على ان البساطى كان ممثل الحزب الذى يناوىء المؤرخ فى هذا الدور من المعركة. والظاهر أيضاً ان ابن خلدون كان يعتمد فى مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثراً مما يعتمدون عليه ، فانه لم يمض على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة ، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة، واستمر فى المنصب عاما وشهرين ، ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الاول سنة ست (٨٠٦) ، وأعيد البساطى فى الشهر نفسه، ثم عزل فى شهر رجب سنة سبع، وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة فى شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسى فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسى لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البساطى فى ربيع الاول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل فى شعبان من العام ذاته، ثم أعيد

(١) يذكر ابن خلدون فى التعريف أن تعيينه هذه المرة كان فى « أواخر شعبان » . ولكن ابن تغرى بردى يؤرخ هذا التعيين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠١) ويقول ابن اياس انه كان فى ١٣ رمضان ، تاريخ مصر ١ ص ٣٣٧ ،
(٢) ابن حجر فى كتاب « رفع الاصر عن قضاة مصر » (مخطوط دار الكتب ١٠٥ تاريخ) ورقة ١٥٩ — وينقله السخاوى فى الضوء اللامع .